رجال الحق

للحقِّ رجالُه، وللباطل أعوانُه. وصراعُ الحقِّ والباطل ممتد مع الزمن. مرتبط بدار الابتلاء والاختبار ﴿ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ﴾ (١)

والباطلُ بجنده ساهرٌ يَرْقبُ غفلةَ المؤمنين. والغلبة للحق والعاقبة له مهما تطاول الباطل وعربد. وهل يقودُ الباطلُ أهلَه إلاّ إلى الخزي والخسران ؟! ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ (٢)

ألا وإن في صراع الحق والباطل ابتلاء للناس وتمحيص ﴿ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴾ (٣)

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ ﴾ (٤)

ما أيْسرَ أن يَدَّعِيَ الناسُ الصدق فيما يقولون ﴿ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ ﴾ (٥) ما أيْسَر أن يُظهروا خضوعهم للشارات وللشعارات؛ ابتغاء

---

(١) محمد : ٤.

(٢) المجادلة : من الآية ١٩.

(٣) الأنفال : من الآية ٣٧.

(٤) العنكبوت : ١-٣.

(٥) الفتح : من الآية ١١.

منزلة ومنفعه. فإذا تبدلت الأحوال، وبَدتْ عواصفُ الشدائد، تميزت مواقف الناس، وعُرفت خصائصهم، وأخطرُ مَا في حياة الأمم نوع من الناس مذبذب، لا يستقر على مبدأ، ولا يثبت مع اعتقاد، دوافعُه دائماً ترتبط بمنافعه. يميل مع الريح حيث مالت.

هؤلاء هم المنافقون الذين نبَّه القرآن عنهم، ووضَّح صفاتِهم، وبيَّن سماتِهم، وكشف أساليبهم، وسجَّل خصائصَهم؛ ليعرف الناسُ أمرهم في كل زمان ومكان.

﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ ﴾ (١)

قال الراغب: ((النفاق هـــو الدُّخول في الشرع من باب والخروج عنه من باب))، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ (٢) أي: الخارجون من الشرع.

وجعل الله المنافقين شرّاً من الكافرين ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ ﴾ (٣)

ولكن كيف يُعَامَلُ هذا الصنفُ من الناس؟ وكيف ينحسر شَرُّه ؟

ذاك ما سنعرفه من أخلاق رسول الله ﷺ، وقد **كان خُلُقُهُ القُرآن.**

بعد أن انتهى القتال في غزوة بني المصْطَلِق اختصم جَهْجَاهُ بنُ مسعود - أجيرُ عمر بن الخطاب الذي كان يقود له فرسَه - مع سِنانِ ابن وَبْرَة حليفِ الخزرج.

(١) النساء : ١٤٢-١٤٣.

(٢) التوبة : من الآية ٦٧

(٣) النساء : ١٤٥.

فضرب جَهْجَاهُ سِنان، فسَالَ دَمُهُ.

فنادى سنان: ياللخزرج، يا معشر الأنصار. ونادى جَهْجَاه: يا معشر المهاجرين، يا لكنانه، يا لقريش. فأقبل جمع من الجيشين، وشهروا السلاح حتى كاد أن تكون فتنة عظيمة، فخرج النبي ﷺ فقال: « **ما بالُ دعْوى الجاهلية** ؟ » فأخبروه. فقال: « **دعوها فإنها منتنة** » فكلَّم جماعةٌ سنان، فترك حقَّه. وسكنت الفتنة.

صلى الله عليك يا نبيَّ الله. لقد بَلَّغت رسالةَ ربِّك، ونصحتَ لأمتك. فاجتمعت كلمتها على الحقِّ، وعزَّ جانبها. وأذهب الله عنها نخوة الجاهلية وتفاخرها للآباء بعد أن أعزها الإسلام وشرَّفها به. لو أن هذا الجمع من الأنصار والمهاجرين استجابوا لنداء القوم ونزعة القبلية والدم. كانت النتيجة دماراً وخراباً. ولكن ما إن خرج الرسول ﷺ ليقول: « **دعوها فإنها منتنة، إنها دعوى الجاهلية** » حتى سكنت الفتنة وهدأت النفوس، وسيطر عليها نداءُ الإيمان، فكانت الألفة وكانت العصمة من عبث الشيطان.

ولكن هل يترُك رأسُ النفاق " عبدُ الله بنُ أبي " هذه الفرصة تمر دون أن يُثير الفتنة ويوغِر الصدور ؟

ما إن بلغه ما وقع لسنان حتى غضب غَضْبَةَ الجاهلية والنفاق وقال: والله ما رأيتُ كاليوم مَذلَّة. أوَقَدْ فعلوها ؟ قد نافرونا في ديارنا. وكاثرونا في بلادنا، أمَا واللهِ لئن رجعنا إلى المدينة ليُخْرِجَنَّ الأعَزُّ منها الأذَل.

ثم أقبل على من حضر من قومه. فقال: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحلَلْتموهم بلادَكم، وقاستموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم، لتحولوا إلى غير داركم، ثم لم تَرْضَوْا بما فعلتم حتى جعلتم أنفسكم أغراضاً للمنايا، فقتلتم دونهم. فأيتمتم أولادكم، وقَلَلْتُم وكثروا، فلا تُنفقوا عليهم حتى ينفضوا من عند محمد.

كان عبد الله بن أبي في رهط من قومه من المنافقين الخزرجيين عندما قال مقالته. وكان عنده من المؤمنين زيدُ بنُ أرْقَم وهو من الخزرج، فلما سمع زيدٌ قولَ ابنِ أُبي: ((لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرجن الأعز منها الأذل)) قال: ((أنت والله الذَليلُ المنتقص في قومك، ومحمدٌ ﷺ في عزٍّ من الرحمن، وقوةٍ من المسلمين)) فجَبُن له ابنُ أبي. وقال لزيد: اسكت، فإنما كنت ألعب.

وانصرف زيدٌ من مجلس ابن أبي، وذهب إلى رسول الله ﷺ وأخبره الخبر، فكره رسولُ الله ﷺ ذلك، وتغيَّر وجهُه، وقال لزيد: يا غلام لعلك غضبت عليه. فقال: والله يا رسول الله لقد سمعته منه. فقال: لعَلَّه أخطأ سمْعُك.

يقول زيد: فكذَّبني رسول الله ﷺ، وأصابني هَمٌّ لم يُصبْني مثلُه قط، وجلستُ في الخباء، فقال لي عمي: ما أردتَ إلاَّ أن كذَّبَك رسولُ الله ﷺ ومَقَتَك. فقال زيد: والله لقد سمعتُ ما قال، ولو سمعتُ هذه المقالةَ من أبي لنقلتُها إلى رسول الله ﷺ وإنِّي لأرجو أن يُنْزِلَ اللهُ على نبيِّه ما يُصدِّق حديثي.

وكان عمرُ رضي الله عنه عند رسول الله ﷺ عندما أُخبر الرسولُ بما قاله ابنُ أبي فقال: يا رسول الله. ائذن لي أنْ أضربَ عنق ابن أُبي، أو مُرْ مُحَمَّدَ بنَ مسلمة بقتله، أو مُرْ عبَّادَ بنَ بشر بقتله. فقال له الرسول الأعظم ﷺ كلمته الخالدة: « **كيف يا عمر إذا تحدثَ الناس بأن مُحَمَّدا يقتلُ أصحابه** »، ثم قال لعمر: « **ترعَد له إذَنْ أنْفٌ كثيرة بيثرب. ولكن أذِّن بالرحيل** »

فأذَّن عمرُ بالرَّحيل؛ استجابة لأمر رسول الله ﷺ في ساعة شديدة الحر؛ لأن خبر مقالة ابن أبي قد شاع في الناس، وصارت حديث الجيش فأراد الرسولُ ﷺ - بحكمته - أن يصرف الناس، وأن يشغلهم عن هذا الحديث. فلما ارتحل النبي ﷺ وأمر الناس بالارتحال. جاءه أسيدُ بن حضير: فقال: السلام عليكم أيها النبي ورحمة الله

وبركاته، يا نبيَّ الله، لقد رحَلْتَ في ساعة منكرةٍ ما كنت تروح في مثلها. فقال له الرسول الأعظم ﷺ: « **أما بلغك ما قال صاحبكم ؟** » فقال: أيُّ صاحب يا رسول الله ؟ قال: « **عبد الله بن أُبي** » قال: أُسَيدُ: وما قال ؟ قال: « **زعم أنَّه إن رجع إلى المدينة أخرج الأعز منها الأذل** »

فقال: أسيدُ: فأنت يا رسول الله تخرجُه إن شئت، هو والله الذليل، وأنت العزيز، يا رسول الله، ارفُق به، قد جاءنا الله بك وإنَّ قومه ليَنْظِمُون له الخرزَ ليتَوِّجوه، وإنه ليرى أنك قد استلبته المُلك.

ثم مشى رسول الله ﷺ بالناس يومَهم هذا حتى أمسى. وليلتهم حتى أصبح، وصدْرَ يومهم ذلك حتى آذتْهم الشمسُ، ثم نزل بالناس فلم يلبثوا أن وجدو ا مَسَّ الأرض حتى وقعوا نياماً. وإنما فعل ذلك رسولُ الله ﷺ ليشغل الناس عن الحديث الذي كان مِنْ عبد الله بن أبي.

أخي المسلم:

إن أهل النفاق يسلكون كل سبيل يحقق أغراضهم ويتوهمون فيه مصالحهم. وقد رأينا جانباً من مواقف رسول الله ﷺ وحكمته في علاج شرورهم وردع كيدهم.

وهو علاج حكيم يضع الأمر في موضعه، ولا يترك سبيلاً للفتن التي يتمنوها ويسعون إليها.

إن تماسك المؤمنين، واعتصامهم بكتاب ربهم، وحسنَ وعيهم وإدراكهم هو السبيل لكشف المنافقين وخزيهم أمام أنفسهم، وإسقاط سعيهم وإبطال كيدهم.

إن المجتمع الواعي الصدوق لا تسري بينه إلاَّ كلمةُ الصدق. ولا يرتفع على أرضه إلا لواء الحق، وهو ضنين أن يدع للأفاكين باباً يدخلون فيه، وللمنافقين سبيلاً يخادعون فيه.

بهذا الوعي الصادق يُرْدع النفاق فلا يقف موقفاً يرتفع فيه بريائه ويتطاول بكذبه.

وأمتنا - بحمد الله - بيدها ميزان الحق الذي لا يزيغ من اتبعه، ولا يضل من اهتدى به « **تَرَكْتُ فِيكُمْ أَمْرَيْنِ، لَنْ تَضِلُّوا مَا تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا: كِتَابَ اللَّهِ، وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ** »[1]

(١) رواه مالك في الموطأ.